فكرية وتربوية

في فقه مقاومة الاستبداد.. من تراث الراحل الدكتور محمد عمارة



السبت 29 فبراير 2020 07:26 م

الاستبداد: هو الانفراد بأية سلطة من السلطات ـ سياسية أو مالية أو إدارية.. والانفراد ـ أي الاستبداد ـ يعني استغناء المستبد بنفسه عن شوري الآخرين, وعن اشتراكهم في صناعة القرار.

ولقد جعل القرآن الكريم هذا الانفراد والاستغناء والاستبداد المقدمة التي تفضي إلي الطغيان, بل جعل ذلك سنة وقانونا من القوانين والسنن الاجتماعية التي لا تبديل لها ولا تحويل:"كلا إن الانسان ليطغي ان رآه استغني" ـ العلق 6, 7 .

وفي المنهاج الإسلامي ـ والسياسة الشرعية ـ تقرر أن الاستبداد منكر من أشد المنكرات، لأنه لا يقوم إلا علي أنقاض فريضة الشورى ـ التي هي المشاركة في صنع القرار .

ولأن هذا الاستبداد قد أصاب الدولة الإسلامية لفترات طويلة من تاريخها, كانت الأمة وفي مقدمتها العلماء, قائمة علي إنكار هذا المنكر، وقائمة وعاملة علي تغييره ـ باليد والثورة حينا ـ وباللسان والقلم أحيانا ـ وبالقلب والعصيان المدني والرفض في كل الأحايين.

ولقد تأسست هذه السياسة الشرعية علي ما جاء في القرآن الكريم من جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة الفرائض, التي تشمل كل ألوان العمل العام .

أي أنها فريضة اجتماعية, واجبة علي الأمة ـ أفرادا وجماعات ـ يقع الإثم علي الأمة كلها عند التخلف عن إقامتها, أي أنها آكد وأهم من الفرائض العينية ـ الفردية ـ التي يقع إثم التخلف عنها علي الفرد وليس علي المجموع: (ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ـ آل عمران: 104 ـ وهي واجبة علي النساء والرجال.

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة) التوبة 71 ـ .

بل إن خيرية الأمة الإسلامية هي خيرية مشروطة, وفي مقدمة شروط هذه الخيرية تغيير المنكر.. كل ألوان المنكر ـ ومقاومة الاستبداد والانفراد بالسلطة والسلطان: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ـ آل عمران: 110.

ولأن السنة النبوية هي البيان النبوي للبلاغ القرآني, فلقد امتلأت أحاديث هذه السنة النبوية بكنوز من التعاليم والقيم التي تزكي فريضة إنكار المنكر ومقاومة الاستبداد والمستبدين وتغيير واقع الجور والفساد..

ومن هذه الأحاديث ـ التي يجب أن يعيها العلماء, وأن تذيعها المنابر, وأن توضع في مناهج التربية والتعليم, لتخريج أجيال حرة, تعي أن دينها قد جاء لتحرير الانسان من الاستعباد لكل الطواغيت ـ فالتوحيد الذي يفرد الذات الإلهية بالعبادة إنما يعني قمة التحرير لهذا الإنسان..

كما يجب أن تعي هذه الأجيال الجديدة ـ بفقه القرآن والسنة ـ أن هذا الدين قد جاء ليحطم سلاسل العبودية وقيود الاستبداد.. جاء ليضع عن الناس "إصرهم والأغلال التي كانت عليهم" الأعراف: 175 .

ومن هذه الأحاديث التي تمثل ثروة في فلسفة الحرية والمقاومة لنظم الجور والاستبداد, قول رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم:

> من رأي منكم منكرا فليغيره بيده, فإن لم يستطع فبلسانه, فإن لم يستطع فبقلبه, وذلك أضعف الإيمان.

> خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب, ثم رجل قام إلي إمام جائر فأمره ونهاه - في ذات الله تعالي- فقتله - أي علي ذلك - .

> أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر

وفي فقه المقاومة للولاة الظلمة والسلاطين المستبدين, وردت العديد من الأحاديث:

> إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا علي يديه يوشك الله أن يعمكم بعذاب من عنده.

> ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره, ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف, يقولون ما لايفعلون, ويفعلون ما لا يؤمرون, فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن, ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن, ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن, وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

> سيكون من بعدي أمراء يكذبون ويظلمون, فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم علي ظلمهم فليس مني ولست منه, ولم يرد الحوض.. ومن نابذهم نجا, ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم, ومن وقع منهم في دنياهم فهو منهم.

وفي فقه المقاطعة للحكام الظلمة والولاة المستبدين, وممارسة العصيان المدني ضدهم وضد استبدادهم وردت الأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك, وخاصة علي العلماء الذين يجب أن يحرصوا علي الاستقلال عن الأمراء:

> أبغض القراء ـ (أي العلماء) ـ إلي الله تعالي الذين يزورون الأمراء.. وخير الأمراء الذين يأتون العلماء, وشر العلماء الذين يأتون الأمراء.. والعلماء أمناء الرسل علي عباد الله ما لم يخالطوا السلطان, فإن فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل, فاحذروهم واعتزلوهم.

> إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق و من أكرم فاسقا فقد أعلن علي هدم الإسلام. و من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه.

> لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم تمالئ قراؤها ـ(أي علماؤها) ـ أمراءها

> إن الله لعن علماء بني اسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم.

نعم.. لقد جعل الإسلام إنكار المنكر ـ وفي مقدمته الاستبداد, الذي تشيع في ظلاله كل ألوان المنكرات ـ فريضة علي الكافة ـ أفرادا وجماعات ـ وأوجب إقامة الجماعات المنظمة لإنكار المنكر, لأن التنظم أفعل في إقامة هذه الفريضة الاجتماعية..

لقد أشار إلي هذه القضية ـ في العصر الحديث ـ الإمام محمد عبده, وهو يفسر معني الأمة بالجماعة المنظمة في قول الله سبحانه وتعالي: (ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فقال:

وإذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفا بإقامة هذه الفريضة.. فهم مكلفون ـ أيضا ـ بأن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل ان تتقنه وتقدر علي تنفيذه..

فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب علي كل مكلف ان يشترك فيه كل فرد مع الاخرين, ولا مشقة في هذا علينا, فإنه يتيسر لأهل كل قرية أن يجتمعوا ويختاروا جماعة يصح أن يطلق عليهم لفظ الأمة, ليتولوا إقامة هذه الفريضة فيها, كما يجب ذلك في كل مجتمع إسلامي..

ذلك أن معني الأمة يدخل فيها معني الارتباط والوحدة التي تجعل أفراد هذه الأمة ـ الجماعة كأنهم شخص واحد.

وهكذا جعل الإسلام إنكار المنكر وتغييره, ليحل محله المعروف والإصلاح, الفريضة الاجتماعية الشاملة لكل فرائض العمل العام, حتي لكأنها الفريضة التي يتوقف علي إقامتها إقامة كل شعب الإيمان..

وهكذا قامت الشريعة الإسلامية لمقاومة الاستبداد, الذي هو المناخ المناسب لانتشار المنكر في كافة مناحي الحياة.